

مجلة الهلال

فبراير 2002

مراد غالب يتذكر

بقلم د.رعوف عباس

الدكتور مراد غالب نجم تألق في سماء الدبلوماسية المصرية مع ثورة يوليو 1952، ويعد من أبرز خبراء العالم بشئون الاتحاد السوفيتي، فقد خدم بسفارتنا بموسكو أربعة عشر عاما، كان في معظمها سفيرا، اقترب خلالها من دائرة صنع القرار في الاتحاد السوفيتي، وربطته روابط الصداقة بقيادة الاتحاد وخاصة خروشوف، كما اقترب -أيضا- من دائرة صنع القرار في بلاده. في مكتب الرئيس جمال عبد الناصر وفي وزارة الخارجية، وقد عده الجميع "رجل عبد الناصر" وهي حقيقة يعتز بها ولا ينكرها، ولا شك أن رجلا مثله لديه الكثير من المعلومات عن الحوادث التي شارك فيها والتي شهدها، ومن هنا تأتي أهمية الكتاب الذي صدر أخيرا متضمنا ذكرياته.

ورغم هذا الدور البارز الذي لعبه مراد غالب في السياسة المصرية زمن الحرب الباردة، لم يفكر الرجل في أن يدون مذكراته عن عمله بحجة أن ما قد يذكره ربما يسبب ضيقا لبعض الشخصيات التي قد يأتي على ذكرها، وهو الطبيب الذي يداوى الجراح ولا ينكأها، حتى استطاع الكاتب الأستاذ عاطف الغمرى أن يقنعه بأن يروى له ذكرياته في جلسات عقدها معه على مدى شهرين، كان عاطف الغمرى فيها مستمعا، يتوقف أحيانا عند بعض الأمور، يناقشه فيها، حرص على أن يسجلها في المقدمة التي كتبها للكتاب الذي صدر عن مركز الأهرام للترجمة والنشر بعنوان: "مع عبد الناصر والسادات، سنوات الانتصار وأيام المحن، مذكرات مراد غالب"، عارضا -بأمانه- لإجابات مراد غالب على ما طرحه عليه من تساؤلات.

وقد جاء الكتاب خلوا من الحديث المستفيض عن فترة التكوين: الطفولة والصباء، وظروف النشأة رغم أهميتها القصوى في تشكيل الشخصية، سوي معلومات مقتضبة ذكرها مراد غالب في معرض تأصيل علاقته بالضباط الأحرار. تعرف من تلك المعلومات أنه ولد بحى الصليبية بالقاهرة عام 1922 لأسرة لم يذكر عنها شيئا، انتقلت للإقامة في حي مصر الجديدة بعد مولده بعامين، وقد ربطته أيام الدراسة بمدرسة مصر الجديدة الابتدائية صداقة حميمة بثلاثة زملاء أصبحوا - فيما بعد- من الضباط الأحرار، هم كمال رفعت، وحسن التهامي، وصلاح دسوقي، وامتدت الصداقة عبر المرحلة الثانوية

بمدرسة القبة الثانوية، ثم تفرقت بهم سبل الدراسة فتوجه مراد غالب إلى دراسة الطب، بينما أصبح أصدقاءه الثلاثة ضباطا ربطتهم ظروف العمل الوطنى بعضوية خلية سرية جعلتهم على صلة حميمة بالفريق عزيز المصري، ومن هنا جاءت صلات مراد غالب بالضباط الأحرار، وبزعيمهم جمال عبد الناصر.

الخلفية السياسية

ويروى لنا مراد غالب كيف بدأ وعيه السياسى يتفتح كأحد المعجبين بالوفد فى إطار ذكريات ثورة 1919، وكفاح الوفد بزعامة مصطفى النحاس للمطالبة بالحقوق الدستورية للأزمة غير انه تأثر بما كان بينه ناظر المدرسة الابتدائية فى تلاميذه من إعجاب أسطورى بالألمان، باعتبارهم العدو اللدود للإنجليز، الذين قد يساعدون مصر على التخلص منهم، كما أعجب بمصر الفتاة وزعيمها أحمد حسين، واهتم بالتعرف على الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية تحت تأثير الإعجاب بما حققه الإتحاد السوفيتى من انتصارات، ولكن مراد غالب حرص على ألا يرتبط بأى حزب بروابط تنظيميه، فهو يريد أن يكون له تفكيره وموقفه المستقل، أقرب ما يكون إلى الليبرالية.

بهذه الخلفية السياسية بدأ مراد غالب عملة الدبلوماسية فى ظروف بالغة الطرافة، فقد كان مدرسا للطب بجامعة الإسكندرية عند قيام الثورة، ونظرا لصلاته الحميمة بالفريق عزيز المصري، أصر الأخير عندما عرض عليه عبد الناصر منصب السفير فى ألمانيا (1953) أن يكون فى صحبته أصدقاؤه الأربعة من الشباب: كمال رفعت، حسن التهامي، صلاح دسوقي، مراد غالب فاعتذر له عبد الناصر عن عدم إمكانية الاستغناء عن الضباط الثلاثة فى هذه الظروف، وكلف مراد غالب بهذه المهمة، فنقل من الجامعة ليشغل وظيفة السكرتير الثانى بالخارجية حتى يعمل مع عزيز المصري فى ألمانيا، ولكن العلاقات مع ألمانيا قطعت بسبب مسألة التعويضات التى قدمتها لإسرائيل، فتغيرت السفارة التى أرسل إليها عزيز المصري فأصبحت موسكو بدلا من بون، وهكذا بدأ مراد غالب عمله الدبلوماسي بالاتحاد السوفيتي، فتعلم اللغة الروسية ليتعرف على البلد وأهله وثقافته حتى يخدم بلاده - فى موقعه - على خير وجه.

مهمته الأولى بموسكو

كان عبد الناصر قد طلب منه استكشاف الاتحاد السوفيتي والنظام السوفيتي وكيفية الاستفادة منه فى صراع حيوى وخطير مع الغرب، ومدى إمكانية مده لمصر بالبتترول فى حالة قيام الانجليز بقطع إمدادات بتترول خليج السويس، ومدى إمكانية شرائهم للقطن المصرى فى حالة تعرضنا للمقاطعة الغربية، وأخيرا مدى إمكانية تقديم السلاح لمصر، ومهام كهذه كانت تتطلب معرفة جيدة بالاتحاد السوفيتي، حرص مراد غالب أن يعد نفسه لها خير إعداد.

وانتهت مهمة مراد غالب في موسكو في فبراير 1957، ليعمل في رئاسة الجمهورية في لجنة خاصة رأسها حسين ذو الفقار صبرى كانت تتولى دراسة القضايا المهمة، وبعد مناقشات مستفيضة تسجل في مضابطها، ترفع توصياتها لرئيس الجمهورية، وغالبا ما كان رأى هذه اللجنة يرجح رأى الوزارات المعنية وخاصة الخارجية، وقد سميت هذه اللجنة "لجنة الرئاسة" ويشير مراد غالب إلى مهام المكاتب الأخرى بالرئاسة مثل مكتب الشؤون العربية برئاسة كمال رفعت، ومكتب الشؤون الإفريقية برئاسة محمد فايق، وكانت هذه المكاتب تمد الرئيس بالمعلومات إضافة إلى تقارير المخابرات، ومتابعة عبد الناصر للإذاعات، أما محمد حسنين هيكل فكان أحد المصادر المهمة للمعلومات عن الغرب وأمريكا خاصة، وكان تعامله مع الرئيس مباشرة.

ومن خلال وجود مراد غالب عضوا بلجنة الرئاسة، كان الاحتكاك الأول مع المشير عبد الحكيم عامر، عندما أسند الرئيس إلى لجنة الرئاسة تقييم تجربة حرب 1956 (العدوان الثلاثي) وخاصة أوجه القصور التي شابته أداء القوات المسلحة، وانتهت اللجنة من دراستها إلى نتيجة مؤداها أن الحرب القادمة مع إسرائيل ستكون جوية، لسلاح الطيران فيها دور حاسم، وأن الأسلحة الأخرى سيكون الغرض منها السيطرة الميدانية واحتلال الأرض تحت الغطاء الجوي، فغضب المشير عندما أبلغ بتوصيات اللجنة وعده تدخلا في شؤون الجيش، وكان من بين القضايا التي درستها لجنة الرئاسة "الوحدة مع سوريا، وثورة العراق عام 1958، والتدخل الإنجليزي في الأردن والأمريكي في لبنان".

وفي عام 1960 عين مراد غالب سفيرا لمصر في الكونجو، حيث عاصر أزمته السياسية، ولعب دورا مهما فيها، إذ كان مصدر الصلة الوحيد مع لومومبا في مخبأه، وقام بتهريب زوجة لومومبا وأولاده إلى القاهرة، ولكن مقتل لومومبا وتولي موبوتو مقاليد الأمور غلب كفة المصالح الاستعمارية، فتم طرد السفير مراد غالب ورجاله وأغلقت السفارة المصرية، والمعلومات التي يوردها مراد غالب عن الكونجو على درجة كبيرة من الأهمية.

بين عبد الناصر وعامر

ومرة أخرى، يجد مراد نفسه - دون أن يدري- طرفا في لعبة الصراع بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، فقد أعدت وزارة الخارجية العدة لإيفاده إلى نيويورك رئيسا للوفد المصري للأمم المتحدة، ومهدت لذلك في أوائل 1961 بإرسال كل الطاقم الذي كان يعمل معه بسفارة مصر بالكونجو إلى نيويورك، ولكنه فوجئ باختبار عبد الناصر له سفيرا في موسكو بدلا من نور الدين قره مرشح المشير لهذا المنصب، ومن ثم عاملة المشير- في زيارته لموسك - بتحفظ باعتباره "رجل عبد الناصر" غير أن مراد غالب استطاع أن يذيب الجليد بينه وبين المشير، وأن يكسب ثقته.

سفيرا في موسكو

وكان وجود مراد غالب سفيرا في موسكو اختيارا موقفا، فقد استطاع أن يوحد عمل المكاتب المصرية المختلفة في موسكو تحت رئاسة السفير بعد أن كان كل منها يعمل بمعزل عن السفارة، وكان ذلك موضع انتقاد السوفيت، وأصبح السفير قناة الاتصال الوحيدة بين الرئيس عبد الناصر والقيادة السوفيتية.

واستفادت مصر من صداقة مراد غالب لخروشوف استفادة كبيرة، فقد استطاع أن يزيل سوء التفاهم بين عبد الناصر وخروشوف خلال زيارة خروشوف لمصر (مايو 1964) للمشاركة في احتفالات السد العالي، وقد أورد في الكتاب الانتقادات التي وجهها خروشوف لتجربة التنمية في مصر، وما قدمه من نصائح في هذا الخصوص، وحرصه على تأكيد أن الاتحاد السوفيتي لا يود التدخل في شئون مصر، فاختار الطريق الذي تسلكه من شأنها وحدها.

وقد كان خروشوف متفهما لظروف مصر، مقدرًا لعبد الناصر، مجيبًا لطلبات المساعدات التي تلقاها من مصر، متجاوزًا في ذلك صلاحياته، ويذكر مراد غالب أن من الأمور التي حوسب عليها خروشوف أمام اللجنة المركزية، وكانت من بين أسباب عزله في 14 سبتمبر 1964، إصراره في تقديم المساعدات لمصر وكوبا ورغم حساسية موقف مراد غالب باعتباره صديقًا حميمًا لخروشوف، استطاع أن يكسب ثقة القيادة الجديدة فاستمر في عمله بنجاح، وأكدت القيادة السوفيتية حرصها على دعم مصر ومساعدتها.

أسرار حرب 67

ويلقي مراد غالب أضواء على حرب يونيو 1967 من الجانب الذي عمل معه، أي الجانب السوفيتي، فيتحدث عن خطة الخداع الاستراتيجي التي استخدمتها إسرائيل، من خلال إقناع الروس بأن هناك حشودًا إسرائيلية على حدود سوريا، ويرجع مراد غالب ذلك إلى إمكانية وجود اختراق إسرائيلي للمخابرات الروسية، وكذلك الدور الذي لعبه الروس في نصيحة مصر بأن تتجنب القيام بالضربة الأولى (بناء على طلب الرئيس الأمريكي)، وقد استنتج مراد غالب من قدوم الملك حسين (ملك الأردن) المفاجئ إلى مصر، وطلبه من عبد الناصر تعيين قائد مصري للجبهة الأردنية (30 مايو)، أنه كان ضالعا في خطة التمويه الاستراتيجي لتوريط عبد الناصر في حرب قد يترتب عليها تصفية نظامه.

ونظرة من الجانب الآخر - الذي لم يره مراد غالب - جانب حلف الأطلنطي، تكشف وثائق الحلف أن اجتماعا خاصا عقد على المستوى الوزاري عام 1964 وبناء على طلب تركيا، لوضع خطة التخلص من عبد الناصر ونظامه عن طريق إلحاق هزيمة مهينة له، تستخدم فيها إسرائيل، من خلال خطة خداع استراتيجي محكمة، ووزعت الأدوار (على ما يبدو) بين أعضاء الحلف (ومن بينهم الولايات المتحدة الأمريكية) وأصدقاء الغرب في المنطقة، وفي مقدمتهم الملك حسين.

ولعل أهم ما فى الكتاب حديثه (بالغ الاقتضاب) عن موقف السوفييت من هزيمة 1976، وخاصة أنهم استخدموا فى خطة الخداع الاستراتيجي، ورأيهم فى كيفية تناول الكارثة التي تترتبت على الهزيمة، فيتحدث عن تردد السوفيت فى مد مصر بالأسلحة الهجومية ذات الآثار الفعالة لموازنة ما لدى إسرائيل من نظائر لتلك الأسلحة، وكيف اضطر السوفييت- أمام تهديد عبد الناصر، بالاستقالة من منصبه- إلى قبول مد مصر بنظام للدفاع الجوى أدى إلى إنهاء الهجمات الإسرائيلية على العمق المصرى فى حرب الاستنزاف، وحسن وضع مصر فيها، وكذلك أشار مراد غالب إلى الدور الذي لعبه السوفييت فى إعادة بناء القوات المسلحة من خلال الخبراء السوفييت، وما كان لحرب الاستنزاف من أثر إيجابي لتدريب القادة والضباط على الحرب الفعلية، فكان له مردوده الإيجابي فى حرب أكتوبر 1973.

ولو كان مراد غالب قد اهتم بكتابة مذكرات حقيقية مستفيضة وليس مجرد ذكريات يرويها على الغير، لقدم لنا مذكرات بالغة القيمة، تتناول بتفصيل أعمق الموقف السوفييتى من حرب يونيو، وحرب الاستنزاف، وما تصوره سبيلا لحل ما يسمى بمشكلة الشرق الأوسط، ولا شك أن لدى مراد غالب معلومات بالغة الأهمية كان عليه أن يسجلها للتاريخ، فليده وحده الإجابة عن عشرات التساؤلات المتعلقة بهذا الجانب من العلاقات المصرية - السوفييتية.

وكان حديث مراد غالب عن الأيام الأخيرة لعبد الناصر مؤثرا فقد كان الرجل يعانى من مرض السكر الخبيث الذى كانت له آثاره الخطيرة على الأوعية الدموية والقلب، ورغم ذلك كان يعمل الساعات الطويلة فى جو دولى وإقليمى بالغ التوتر، وكان الروس ينصحون مراد غالب بأن يكشفه بحقيقة مرضه حتى يتخفف من الأعباء ويتجنب التوتر، والأضواء المحدودة الخافتة التى ألقاها مراد غالب على شخصية عبد الناصر، بالغة الأهمية، فهو يشير إلى أسلوب الرجل فى العمل، وحرصه على جمع مقاليد السلطة فى يده حتى يحقق أحلامه فى بناء دولة قوية متحضرة، وأشار إلى موقفه من القوى الكبرى، فرغم ميله إلى الغرب اضطر إلى التعامل مع السوفييت لمصلحة مصر الوطنية ودعما لاستقلالها الوطنى، وهنا أيضا لم يوف غالب هذا الجانب حقه رغم ما لديه من معلومات كثيرة ومهمة عنه.

فترة حكم السادات

ويروى لنا مراد غالب ما أصاب السوفييت من حيرة وهم يراقبون الأمور فى مصر بعد رحيل عبد الناصر، وخاصة عندما عملوا أن هناك من يدعون فى مجلس الأمن القومي إلى عدم تجديد مبادرة روجرز، ومعنى ذلك العودة إلى الأعمال العسكرية ضد إسرائيل فى وقت لم يتم فيه بعد تكوين الأطقم المصرية التى تعمل على حائط الصواريخ وشبكة الدفاع الجوى، كما أنزعج السوفييت لما طرحه السادات من فكرة الانسحاب الإسرائيلي 12 كيلو متر شرق القناة على أن يتم تطهير القناة وفتحها للملاحة، ثم التفاوض حول السلام، لأن هذا العرض، لو قبلته إسرائيل سوف يؤدى إلى تثبيت أقدام إسرائيل فى

سيناء مع طول فترة تطهير القناة، وطول أمد المفاوضات، ولم يرتح الروس إلا عندما رفض الأمريكان والإسرائيليون اقتراح السادات، كذلك أزعجهم تصفية السادات لرجال عبد الناصر (15 مايو)، وهنا يقدم مراد غالب شهادة مهمة في حق من سماهم "رجال عبد الناصر". وما أسمتهم دعاية السادات "مراكز القوى"، فذكر أنهم جميعا كانوا على درجة عالية من الوطنية والتفاني في أداء مهامهم، وأن ولاءهم كان لمصر وعبد الناصر، ونفى أى شبهة قيام علاقة خاصة بين أى منهم والسوفييت، وأرجع الأزيمة التي وقعت بينهم والسادات إلى أنهم كانوا منفيين للأوامر من الطراز الأول، يفعلون بدقة ما يؤمرون به، ولم يتم تدريبهم على اتخاذ المبادرة، والرؤية الخاصة، وقد أربكهم رحيل عبد الناصر وجعلهم يتخبطون في التعامل مع السادات، وعندما أقال على صبري، لم يجدوا سوى سبيل التصرف السلب بتقديم الاستقالات ظنا منهم أن ذلك سيؤدى إلى نوع من الشلل للأجهزة المهمة التي كانت تحت إمرتهم، فعصف بهم السادات.

كان هذا هو التحليل الذي قدمه مراد غالب لجروميكو عندما أبدى له مخاوفه من الاتجاه اليميني للقيادة الجديدة في مصر، وكان غالب على يقين - بينه وبين نفسه - أن السادات سيسلك طريقا مختلفا، لاعتقاده أن أمريكا ستحل له القضية. ولكن السوفييت كانوا يتوجسون خيفة من السادات، فأصروا على أن يوقع معهم معاهدة صداقة وتعاون. وبعد انقضاء ثلاثة أشهر على توقيع المعاهدة، فوجئ مراد غالب بتعيينه وزير دولة للشئون الخارجية، وفهم من ذلك أن السادات يريد إبعاده عن موسكو، تمهيدا لبداية سياسية جديدة تماما، وقد تحقق ظنه، فقد بدأ السادات يصدر من الإشارات ما ينم عن ضيقه بالسوفييت، وأحس أن هيكل وكان وزيرا للإعلام، يلعب دورا مهما في الاتصال بالسفراء الغربيين والمشرف على المصالح الأمريكية، وأحس من مقابلات الأخير له أنه يريد التعرف على اتجاهات وزير خارجية عاش في موسكو سفيرا لعشر سنوات، وقد تولى مراد غالب بناء على اقتراح السادات ومساعدته إجراء اتصال غير رسمي مع الإسرائيليين في الأمم المتحدة لم يسفر عن نتيجة، كما كلفه السادات بعد أن ظل بلا عمل نحو ثمانية أشهر، بالسفر إلى العراق والكويت وسيطا في النزاع بين البلدين.

وأثناء وجوده ببغداد، أصدر السادات قرارا بتعيينه وزيرا للإعلام خلفا لهيكل، ثم سحبت بعض اختصاصاته وأعطيت لعبد القادر حاتم، مما جعله يشعر بالضيق، ويحيل كل ما اتصل بالإعلام إلى حاتم، وشرح الظروف التي عينه فيها السادات وزيرا للوحدة مع ليبيا في مجلس الوزراء الليبي. وذهب لاستلام عمله في ليبيا يوم 6 أكتوبر 1973، وكان السادات سعي لإبعاده عن مصر عند قيام الحرب. وقد روى مراد غالب ما حدث في حرب أكتوبر وما صاحبها من جهود دبلوماسية، وأخيرا عينه السادات سفيرا، في يوجوسلافيا عام 1974، وبين كيف قدم استقالته بعد الإعلان عن زيارة السادات للقدس في 19 نوفمبر 1977.

وختم مراد غالب كتابه بإلقاء نظرة على رئاسة الجمهورية في عهد السادات، فتحدث عن رجال السادات الجدد، وعن إصرار الفريق صادق في كل الاجتماعات على إخراج الخبراء السوفييت من مصر، وأشار إلى أنه كان هناك اتفاق بين تيتو وعبد الناصر بالنسبة للوجود السوفيتي في مصر، يعطى الرئيس اليوغوسلافي الحق في الاتصال بالرئيس الأمريكي لإقناعه بمقايسة الوجود العسكري السوفيتي وإنهائه في مقابل انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية التي احتلت عام 1967، غير أن هذا الاتفاق لم يجرب.

وحديث مراد غالب عن "رجال السادات" على اقتضابه الشديد بالغ الأهمية، وخاصة حديثه عن أسلوب عمل السادات، وكنا ننتظر منه أن يستقيض في ذلك الحديث. وعلى كل فهذه "الذكريات" بالغة الأهمية، لعلها تقنع مراد غالب بأهمية كتابة "مذكرات" يعتمد في كتابتها على أوراقه الخاصة (ولا يشك أن لديه منها ما يكفي لذلك) خدمة لتاريخ الوطن الذي خدمه بإخلاص.